الإسلام تحدّي

مدخل عملي إلى الإيمان

بسم اللہ الرحمٰن الرحیم

سنریہم اٰیٰتنا فی الآفاق وفی انفسہم
حتّٰی یتبیّن لہم انّہ الحق ط (حم سجدہ ۵۳)

وحيد الدين خان

الإسلام يتحدى

مدخل علمي إلى الإيمان

تعريب
دكتور ظفر الإسلام خان

مراجعة وتحقيق
دكتور عبد الصبور شاهين

مكتبة الرسالة

This book, written originally in Urdu and first published in 1966, has subsequently been translated into Arabic, English, French, Turkish, Malay, Malayalam, Marathi, Serbo-Croatian, Sindhi, Tamil, etc.

ARABIC: الاسلام يتحدى

Translated by Dr Zafarul-Islam Khan
Published by Scientific Research House, P.O. Box 2857, Kuwait and Al-Mukhtar Al-Islami, P.O. Box 1707, Cairo Egypt.

ENGLISH: *God Arises*

Translated by Dr Farida Khanam
Published by The Islamic Centre, C-29 Nizamuddin West, New Delhi-110 013 India.

MALAY: *Islam Menjawab Tantangan Zaman*

Translated by A. Rofi'i
Published by Pt. Bina Ilmu, Jl. Tunjungan 53 E, Surabaya, Indonesia

MALAYALAM: *Islam Velluvilikkunnu*

Translated by Muhammad Kodiyathoor
Published by Indian Islahi Centre, c/o Yuvatha Book House, P.O. Box 524, Calicut-2, Kerala, India

SINDHI: جديد علم جو چيلنج

Translated by Sirajuddin Bhutto
Published by Sindh National Academy, P.O. Box 258, Hyderabad, Pakistan.

TURKISH: *Islâm Meydan Okuyor!*

Translated by Cihad H. Resad
Published by Sebil Yayinevi, Vilâyet Han Kat: 1, Nu: 101-102, Cagaloglu, Istanbul, Turkey

URDU: مذہب اور جدید چیلنج

Published by Maktaba Al-Risala, C-29 Nizamuddin West, New Delhi-110 013, India.

First published, Kuwait/Beirut, 1974
First published in India, 1992
Reprinted 2000, 2005

Goodword Books Pvt. Ltd.
1, Nizamuddin West Market, New Delhi- 110 013
e-mail: info@goodwordbooks.com

Printed at Rashtrya Printers

تمهيد

الموضوع الذي سندرسه في الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة إلى اللغة الأردية . ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصاً ، رغم الجهود الطيبة التي بذلها بعض الكتاب .

والعصر الحديث يسمى : « عصر الإلحاد » ، لإنكاره الدين . وهذا الإلحاد ليس محض ادعاء . بل يرى أصحاب نظريته أنها طريقة بحث ودراسة ، اهتدى إليها الإنسان ، بعد التطور الحديث في ميادين العلم المختلفة ، وهذه « الدراسة التطورية » لا تهدف إلى إثبات نظرية ما أو إنكارها ، وإنما هي منهج خالص في البحث ، أثبت لأصحابه أن الدين باطل ؛ ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديدة في ما قاله ت . ر . مايلز :

« إن الدراسة الجديدة هي تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة ، وهي لا تستهدف وضع إجابات قطعية . وهو — من هذا الوجه — تغير هام طرأ على الفلسفة في النصف الأخير من هذا القرن ، ولسوف يبقى هذا التغير مستمراً ، دون أمل في توقفه على المدى[1] البعيد » .

---

(١) *Religion and the Scientific Outlook*, 1954, p.13

ولا بد لباحثينا ، إذا ما أرادوا البحثَ في العلوم الحديثة ، دفاعاً عن الدين ، ألا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير ، سواء اعتبرناه تفسيراً علمياً محضاً ، توصل إليه المفكرون المحدثون، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل ، ركنوا إليه ، حين أخفقوا في البحث عن التفسير المادي للكون ، بعد إنكار الدين .

وعلى سبيل المثال : إن الأعمال التي قام بها علماؤنا ، لإثبات النبوة ، تفترض مقدماً أن العصر الحديث يدعي : أن محمداً صلى الله عليه وسلم « كان نبياً كاذباً » ، فيبدأون في جمع كميات كبيرة من المواد التي تثبت أن محمداً كان « نبياً صادقاً » . ومغزى القول : « كان محمد نبياً كاذباً » ، هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين ؛ على حين يشك الإنسان الجديد في المبدأ نفسه ، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلاً . فأما « النبي الكاذب » False Prophet ، فهو اعتراض قديم جاء به اليهود والنصارى ، الذين يؤمنون بأنبيائهم ، وينكرون نبي الإسلام . وأما العقل الحديث ، فلا يبحث عما إذا كان محمد نبياً « صادقاً أو كاذباً » ، وإنما يبحث عن منبع كلامه النبوي ، وينتهي ، اعتماداً على المناهج المعروفة ، إلى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو : « اللاشعور » ... وهو يرى أن التعبير عن كلام اللاشعور بالوحي والإلهام يصلح أن يكون استعارة جميلة ، ولكنه يستحيل اعتباره واقعاً حقيقياً .

ولذا ، فإن مهمتنا لا تنتهي عند إثبات صدق نبوة رسول الإسلام ، بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحي والإلهام ، ونثبت أن الوحي ينزل على أناس معينين ، من بينهم نبيّ الإسلام .

كان هذا موقف من يتصدى لنقد الفكر الحديث ، دون فهم موقفه من القضية . وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين . ولكنهم ، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعدّ من (المسلمات العلمية) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات ، التي سلم بها علماء الغرب ، هي

نفس ما ورد في القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الأخرى . وهذه الطريقة في التطبيق والتوفيق ، بين الإسلام وغيره ، هي نفس الطريقة التي تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة . وأية نظرية ، تُقَدَّم على هذا النحو ، يمكنها أن تكون تابعة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة ! ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر في العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق ، فهو هائم ، ولا شك ، في عالم خيالي ، لا يمت إلى الحقائق بسبب .. فإن تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتي من طريق التلفيق ، بل عن طريق الثورة الفكرية .

وهذه الحالة تورِّطنا ، بصورة أكبر ، عندما تتعلق المسألة بجانب أساسي وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة « الشهاب الثاقب » التي وردت في القرآن ، حين يجد كشفاً جديداً في علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التي تثار حول الدين ، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكليّ في هيكل الفلسفة الدينية نفسه .

وأوضح مثال في هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا « نظرية النشوء والارتقاء » ، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها ، بعد دراساتهم ومشاهداتهم .. واضطروا ، بناء على هذا ، إلى تفسير جديد للإسلام في ضوء النظرية الجديدة ، وحين احتاجوا إلى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه المعالم ، لا أثر فيه من روح الإسلام ، التي ضاعت مع الأجزاء المقطعة في عملية التلفيق الجديدة .

إن نظرية النشوء والارتقاء تستهدف إقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لا بد من أن تحدث الأحوال السيئة في الماضي ، لا في المستقبل . ويروق لهذه النظرية حياة الخلود في الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود في نار الجحيم . ولذا ، ادعى العلماء المسلمون ،

الذين قبلوا هذه النظرية ، أن الجحيم ليست مكاناً للعذاب ، وإنما هي مركز للتربية والتزكية . فالحياة تواصل مسيرتها في مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ، سوف يمرون بأحوال الجحيم الصعبة ،حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية – مثلاً – في الإسلام ، ليست إلاّ « أحكاماً مؤقتة » ، فإن هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعي .

ويمكن فهم نوعية الأعمال التي قام بها بعض علمائنا من المثالين المذكورين ، فهي أعمال ناقصة ، رغم الجهود التي بذلت في صوغها . ولا يدعي المؤلف أن محاولته تخلو من النقائص . ولكنه يقول : إن المحرك الحقيقي لمحاولته هو شعوره بأن عملاً من هذا القبيل كان لا بد أن يكون .

إن الطريقة التي يتبعها الكتّاب للدفاع عن الدين ذات وجهين : فكرية وتجريبية ؛ وبعبارة أخرى : فلسفية وعلمية ، إن صح التعبير . وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية ، وهي التجريبية أو العلمية . والسبب في ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التي وضعت على المنهج الأول ، على حين يوجد نقص شديد في الكتب من المنهج الثاني .

وإنني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين ، هو تصديق لما جاء في القرآن ، في سورة النمل : « وقُلِ الحمدُ للهِ ، سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » . وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة .

وحيد الدين

The Islamic Centre
C-29 Nizamuddin West
New Delhi 110 013, (India)

• • •

الباب الأول

قضيّة معارضي الدين

« تعتبر التطورات العلميّة التي حدثت في القرن الماضي « انفجاراً معرفياً » Knowledge Explosion في وجه جميع الأساطير الإنسانية عن الآلهـــة والدين كما تفجرت الأفكار القديمة عن المادة ونُسفت بمجرد تفجير الذرة » ... هذه هي قضية العلم الحديث الموجهة إلى الدين كما يقول البروفيسور جوليان هكسلي[1] . وتعتبر الصفحات التالية رداً على هذا التحدي ؛ فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين ، ولم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه . بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام : « بالحقيقة الأخيرة » قبل أربعة عشر قرناً من الزمان :

« سَنُرِيهِمْ آياتِنَا في الآفَاقِ وفي أنْفُسِهِمْ حتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الْحَقّ » [2] .

• •

---

(١) *The Hindustan Times*, Sunday Magazine, Sept. 24, 1961

(٢) فصلت / ٥٣ .

والدين ، كما يزعم الملحدون من العلماء ، شيء لا حقيقة له ، وهو مظهر للغريزة الإنسانية الباحثة عن حقائق الكون ، والتي تحاول تفسيره . إن هذه الغريزة الإنسانية في ذاتها شيء مستحسن ، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا إلى إجابات غير صحيحة ، وهي التي تحتويها الآن أفكارهم عن الإله والدين . أما اليوم ، وبعد ما توفرت لدينا الوسائل العلمية ، وأصلحت المعلومات الحديثة شيئاً كثيراً من معتقداتنا الاجتماعية والحضارية ، فقد حان الوقت لنعيد النظر في جميع ما وصل إليه أجدادنا من أفكار .

• • •

ويذهب الفيلسوف الفرنسي « أوجست كونت » – الذي نشأ في النصف الأول من القرن التاسع عشر – إلى أن تاريخ تَطور الفكر الإنساني ينقسم إلى ثلاث مراحل :

الأولى : **المرحلة اللاهوتية** (Theological Stage) وهي التي فسرت الأحداث فيها بإسم الإله .

والثانية : **المرحلة الميتافيزيقية** : وفيها فسّر الإنسان الأحداث باسم « عناصر خارجية » ، لا يعلمها ، ولكنه لا يذكر اسم الإله .

والثالثة : **المرحلة الوضعية** (Positive Stage) ، التي أخذ الإنسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة ، يمكن إدراكها بالمطالعة ، أو بالمشاهدة العلمية . وفي هذه المرحلة لا تُذكر « الأرواح والآلهة والقوى المطلقة » . ونحن ، بناء على هذا ، نعيش في المرحلة الثالثة التي تسمى في الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism) . إن نظرية « الوضعية المنطقية » أو التجريبيّة العلمية (Scientific Empiricism) لم تعرف كحركة علمية عالمية إلاّ خلال العقد الرابع من القرن الحاضر ، ولكنها ، كفكرة ، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة . وعلى ظهر هذه الفكرة نجد أسماء كبار العلماء والفلاسفة من أمثال : هيوم ، وميل ، إلى برتراندرسل .

وقد أصبحت هذه الفكرة اليوم ، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التي تقوم بدور فعال في الدعاية لها ، من أهم الحركات العلمية الحديثة . ويقول أحد الباحثين :

« كل معرفة حقة مرتبطةٌ بالتجارب ، بحيث يمكن فحصها أو إثباتها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة »[1] .

وبناءً على هذا يدعى معارضو الدين أن التطور الذي بلغ به الإنسان اليوم أعلى مستوى من الإنسانية ، هو نَفْيٌ للدين من تلقاء نفسه .. والسر في ذلك أن الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد أن « الحقيقة » ليست إلاّ ما يمكن فحصه وتجربته علمياً . وقد قام الدين على « حقيقة » لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علمياً . وبعبارة أخرى : إن التفسير اللاهوتي للأحداث والوقائع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية ، فهو باطل لا حقيقة له . ويترتب على هذا القولُ بأن : « الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية » ؛ ذلك أن علم الإنسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقي للأحداث ، على حين أن القانون العام للتطور أتاح لنا أن نبحث عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة[2]

ويمكن أن نقول هذا الكلام بأسلوب آخر : إن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب « شيكاً لا رصيد له في المصرف » ، فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية ، فعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة) صحيحة نحواً ، ولكن ليس لها أي أساس علمي .

« لقد أثبت (نيوتن) أنه لا وجود لإله يحكم النجوم . وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكي لا يحتاج إلى أي أسطورة لاهوتيّة . وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و (باستور) في ميدان البيولوجيا . وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التي حصلناها

---

(١) *Dictionary of Philosophy*, New York, p. 285.
(٢) *Religion and the Scientific Outlook*, p. 20.

في هذا القرن بمكان الإله ، الذي كان مفروضاً أنه هو مدير شئون الحيـــاة الإنسانية والتاريخ »[1] .

لقد قامت قضية معارضي الدين على أسس ثلاثة :

الأساس الأول : بطل هذا الانقلاب في البيولوجيا هو (نيوتن) ، الذي عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية . ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالاً علمياً أوسع ، حتى قيل : إن كل ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم ، سموه « قانون الطبيعة » . فلم يبقَ للعلماء ما يقولون، بعد هذا الكشف ، غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون . وضرب (والتير) مثلاً في هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتهـــا الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بها . ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الإله الميت ، وعلى حد قوله : « لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يُصنعَ ، فكيف نسلّم بأن له صانعاً»؟

° ° °

لقد جلى التطور العلمي للإنسان كثيراً من سلسلة الأحداث التي لم يشاهدها من قبل . فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها ، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب . وها قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائياً ، بعدما عرفنا الأسباب المؤدية إلى هذه الحركة الكونية . « فإذا كان قوس قزح مظهراً لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء » .

من أجل هذا كله ، وغيره ، قال هكسلي :

---

(١) *Religion Without Revelation*, New York, 1958 p. 58.

« إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة »[1] .

° ° °

والأساس الثاني : وقد ازداد العلماء يقيناً بعد البحوث العلمية في ميدان علم النفس ، حين توصلوا إلى نتائج تثبت أن الدين نتاج اللاشعور الإنساني ، وليس انكشافا لواقع خارجي . ويقول عالم كبير من علماء النفس :

« God is nothing but a projection of man on a cosmic screen »

« ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون » . وما عقيدة الدنيا والآخرة إلا صورة مثالية للأماني الإنسانية ؛ وما الوحي والإلهام إلاّ إظهار غير عادي لأساطير الأطفال المكبوتة (Childhood Repression)[2]

° ° °

ويرى علم النفس الحديث أن العقل الإنساني مركب من شيئين هما : (الشعور) . وهو مركز الأفكار التي تخطر على قلوبنا في ظروف عادية ، و (اللاشعور) وهو مخزن الأفكار التي مرت بنا ونسيناها ؛ ولا تظهر إلاّ في أحوال غير عادية ؛ كالجنون والهستيريا . وهذا القسم الثاني أكبر بكثير من الأول . ويمكن أن نمثل لهما بجبل من الجليد ؛ فلو قسمناه تسعة أجزاء لكان منها ثمانية في جوف البحر ، ولظهر جزء واحد على السطح .

اكتشف فرويد بعد جهد طويل أن اللاشعور قد يقبل أفكاراً في الطفولة ، وتؤدي إلى أعمال غير عقلية ، وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العقائد الدينية : فإن فكرة الجحيم والجنة ترجع إلى صدى الأماني التي تنشأ لدى الإنسان إبان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبقى دفينةً في اللاشعور ، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياةً أخرى يتيسّر له فيها تحصيل ما كان يتمنّاه ،

---

(١) *Religion Without Revelation*, New York, p. 58.
(٢) *Iqbal Review*, April 1962.

شأن الرجل الذي قد لا يظفر بما يحب في الواقع فيحصله في المنام . وهكذا خرجت عقدة التفرقة بين الصغير والكبير (Father complex) — من الجرائم الاجتماعية ، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء .

ويقول رالف لنتون :

« إن عقيدة القادر المطلق الظالم في نهاية الأمر ، الذي لا يرضى إلاّ بالطاعة الكاملة والوفاء ، كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامي . لقد خلق هذا النظام جبروتاً غير عادي . وكانت نتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مُفصلة عن المحرمات في كل مجال من الحياة الإنسانية . وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون أحكام آبائهم العمياء ويطيعونها . وما التصور الإلهي (اليهودي) إلا خيال مثالي لأب سامي ، مع شيء من المبالغة والتجريد في الأوصاف والطاقات »[1] .

* * *

والأساس الثالث لقضية معارضي الدين هو : (التاريخ) . يقولون : إن القضايا الدينية وُجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان ، فلم يكن في استطاعته أن يفلت من السيول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض ، فأوجد (قوى فرضية) يستغيثها ، لتنقذه من البلايا النازلة . وهكذا ظهرت الحاجة إلى شيء يجتمع الناس حوله ، ولا يتفرقون ، فاستغل اسم (الإله) [الذي تفوق قوته قوة الإنسان ، ويهرع الجميع إلى رضاه] .

يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت اسم «الدين» (Religion) :

« وبجانب المؤثرات الأخرى التي ساعدت في خلق الدين ، فإن إسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جداً في هذا المجال . إن الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التي كانت تسود على ظهر الأرض . فعقيدة كون الإله

---

(١) *Tree of Culture*, Ralph Linton.

« الملك الأكبر » صورة أخرى للملكية الإنسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية . وكان الملك الأرضي القاضي الأكبر ، فأصبح الإله يحمل هذه الصفات ، ولقّب « بالقاضي الأكبر الأخير » ؛ الذي يجازي الإنسان على الخير والشر من أعماله . وهذه العقيدة القضائية التي تؤمن بكون الإله محاسباً ومجازياً لا توجد في اليهودية فحسب ، وإنما لها مقامها الأساسي في العقائد الدينية ، المسيحية والإسلامية »[١]

° ° °

« لقد خلق العقل الإنساني الدين ، وأتم خلقه . في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية » . ويضيف جوليان هكسلي إلى هذا قوله :

« فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته »[٢] . ويقول أيضاً :

« إن هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد ، وقد كانت هي المسئولة عن هذا التعامل ، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين » ، ويضيف : « لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا ، وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات ؛ لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ؛ جاء بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ، ثم بالعقيدة الإلهية ، حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) . وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته . ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا ، بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ، ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور . »[٣]

• • •

---

(١) *Encyclopaedia of Social Sciences*, 1957 Vol, 13, p. 233.

(٢) *Man in the Modern World*, p. 130.

(٣) *Ibid.*, p. 131.

وترى الفلسفة الشيوعية أن الدين « خدعة تاريخية » ، وهي تركز الأسباب في عوامل اقتصادية ، لأنها تنظر إلى التاريخ في ضوء الاقتصاد . وهي ترى أن العوامل التاريخية التي خلقت الدين هي النظام البورجوازي الاستعماري القديم . وهذا النظام القديم يلقى اليوم حتفه ، فلندع الدين أيضاً يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز :

« إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية »[1]

فالتاريخ الإنساني هو تاريخ حروب الطبقات التي امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعي : (Communist Manifesto) :

« إن الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية ، وهي تتستّر وراءها من أجل مطامعها » .

ويقول لينين في خطاب له ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر سنة ١٩٢٠ :

« إننا لا نؤمن بالإله ، ونحن نعرف كل المعرفة أن أربابَ الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالاً ، ومحافظةً على مصالحهم ، إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة ، غير الإنسان ، والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقية ، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتاري ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية »[2] .

---

(١) *Anti Duhring*, Moscow, 1954, p. 131

(٢) *Lenin Selected Works*, Moscow, 1947. Vol, II, p. 667.

كانت هذه هي قضية معارضي الدين ، التي يزعم بعض العلماء الجدد بناءً عليها ما يمكن تلخيصه في كلمة أستاذ أمريكي في طب الأعضاء :

"Science has shown religion to be history's cruelest and wickedest hoax."

« لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ »[1] .

ولسوف ننظر في مدى صحة هذه القضية على أسس علمية في الباب الآتي ، إن شاء الله .

• • •

(١) Quoted by C.A. Coulson, *Science & Christian Belief*, p. 4.

الباب الثاني

نقد قضية المعارضين

عرضنا في الباب الأول قضية المعارضين ، الذين يزعمون أنه لا داعي لأن يبقى الدين في عصرنا الحاضر . والحقيقة أن هذه القضية لا تقوم على أساس ، ولسوف نتناول في الأبواب الآتية ، أفكارَ الدين الأساسية ، واحدة واحدة ، لننظر في مدى حقيتها ، كما كانت قبل العصر الحديث .

وإليكم نقداً عاماً لقضية المعارضين :

أولاً : حقيقة الطبيعة :

لنتكلم أولاً في الدليل الذي يعرض باسم البيولوجيا ، وهو أن الحوادث تحدث طبقاً (لقانون الطبيعة) ، فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولاً . إن أحسن ما قيل في هذا الصدد ما قاله عالم مسيحي :

"Nature is a fact, not an explanation."

« إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيراً (له) » . لأن ما كشفتم ليس بياناً لأسباب وجود الدين ، فالدين يبيِّن لنا الأسباب والدوافع

الحقيقية التي تدور «وراء الكون»، وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون. إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع، فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال: «ما هذا؟»، وليس لديه إجابة عن السؤال: «ولكن لماذا؟». وإن التفسير الذي نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثاني.

• • •

لنفهم هذا من مثال بسيط. فالكتكوت يعيش أيامه الأولى، داخل قشرة البيضة القوية، ويخرج منها بعد ما تنكسر مُضْغَةَ لحم، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه. ولكنا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت، يستعمله في تكسير البيضة، لينطلق خارجاً منها، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.

هذه المشاهدة، كما يزعم المعارضون، أبطلت الفكرة القديمة القائلة: بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة؛ إذ قد رأينا يقيناً أن قانوناً لواحد وعشرين يوماً يحدث هذه العملية. والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلاّ على حلقات جديدة للحادث، ولا تكشف عن سببه الحقيقي، فقد تغيّر الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسّر البيضة، بل عن (القرن)؟. إن السبب الحقيقي سوف يتجلّى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن؛ العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلاّ أنه «مشاهدة للواقع على نطاق أوسع»، ولكنه ليس تفسيراً له.

• • •

يقول البروفسور (سيسيل بايس هامان)، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا:

«كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل